أُكتبْ من دون رقيب في رأسكَ، ودَعْهم يمزِّقوا

لقمان ديركي

في تجربتي مع الرقابة تعلّمتُ جملةً قصيرةً مفادُها أنْ لا حول ولا قوّة للرقيب في ما يتَّخذهُ من قرارات. ولقد بحثتُ دائمًا عن الرقيب الشجاع الذي يَمْنع بشجاعة ويَسْمح بشجاعة. ولكنْ أنّى له ذلك وهو موظّف خائف على راتبه، ويَبْحث دائمًا عن النصّ الذي لا طعم له ولا لَوْن ولا رائحة؟ وهذا الكلام يَنْطبق تمامًا على رقابة اتّحاد الكتّاب العرب للنصوص الأدبيّة والفكريّة، التي تُحوَّل إلى الاتّحاد من وزارة الإعلام.

وقد حدث أن مُنع كتابي الشعريّ الأول **ضيوف يثيرون الغبار**، فقدَّمتُه مرّةً أخرى بعنوان **طريق عودة منسيّ**، فتمّت الموافقة عليه. ثم أعدتُ له العنوانَ الأصليّ، فمُنع من التداول. وبعد فترة سُمح بتداوله... في دورة رقابيّة سرياليّة تؤكّد مزاجيّةَ الرقيب وعدمَ التزامه ضوابطَ محدّدةً في الرقابة.

وقد كانت لنا تجربةٌ أدبيّةٌ غيرُ خاضعة للرقابة في بداية التسعينيّات، عندما أسَّسنا مجلة **ألف** التي كانت تُطبع خارج سوريا وتُدْخل إليها كأيّ مطبوعة خارجيّة. وبعد توقُّف مجلة **ألف** حاولنا نقلَ هذه «الحريّة» إلى المطبوعات الثقافيّة السوريّة، ولكنْ من دون جدوى بسبب أنّ القائمين على الصفحات الثقافيّة ملكيُّون أكثر من الملك: فهم خائفون على مناصبهم، وهذا يَسْتوجب منهم أن يَنْشروا ما لا يثير أيَّ شيء. والنتيجة: صفحات مملّة وغيرُ مقروءة.

في عام ١٩٩١ طلبتْ منّي مجلةُ **الناقد** المشاركةَ في ملفّ بعنوان «اتّحادات الكتّاب... الوجه الثقافيّ للقمع السياسيّ،» فشاركت بمقالة بعنوان «مؤسّساتُ تصنيع الأدباء.» فما كان من أحد الكتّاب الرقباء إلاّ أن اتّهمني على صفحات جريدة الاتّحاد (**الأسبوع الأدبيّ**) بالعمالة لمخابرات خارج القطر، وبانعدام الحسّ الوطنيّ، وبالشذوذ الجنسيّ. طبعًا لم أردّ على هذا الكلام، ولكنّني ذكرتُه للمقارنة: فلو كانت هذه الاتّهامات موجّهةً إلى أحد المتنفِّذين في المؤسّسات الثقافيّة، هل كانت ستجد طريقَها إلى النشر؟! إذًا، مرّةً أخرى، الأمر يتعلّق بمزاجيّة الرقيب وبتحكّم الفاسدين وغيرِ الموهوبين بآليّات النشر.

وتأكّد هذا الكلام عندما قمتُ مع علي فرزات بتأسيس مجلة **الدومري**، وكنتُ أمينًا للتحرير. وقد نَشَرنا في هذه الجريدة غيرِ المراقَبة كلَّ ما يَخْطر في بال المواطن السوريّ من أسئلة حول التعسُّف والقمع والفساد، ولم يعْترضْ طريقَنا أحدٌ لكوننا أصلاً لم نَكُنْ خاضعين لرقابةٍ من أيّ نوع كان. ولكنّ المضايقات بدأتْ عندما راح بعضُ المسؤولين يخافون على أسمائهم ومناصبهم، فشرعوا في تضييق الخناق على الجريدة، وكنتُ وقتها قد أصبحتُ خارجها. وفي مقابلة معي أجراها تلفزيون الـ BBC البريطانيّ قلتُ إنّ الحرية في الكتابة هي من صُنع الكاتب نفسِه، وليست هديةً يقدِّمها له الرقيب. وكذلك قلتُ لقناة الجزيرة القطريّة إنّه قد تأكّد لي أنّ الكاتب **هو** الذي يجمِّع في رأسه الرقباءَ قبل أن يَكْتب؛

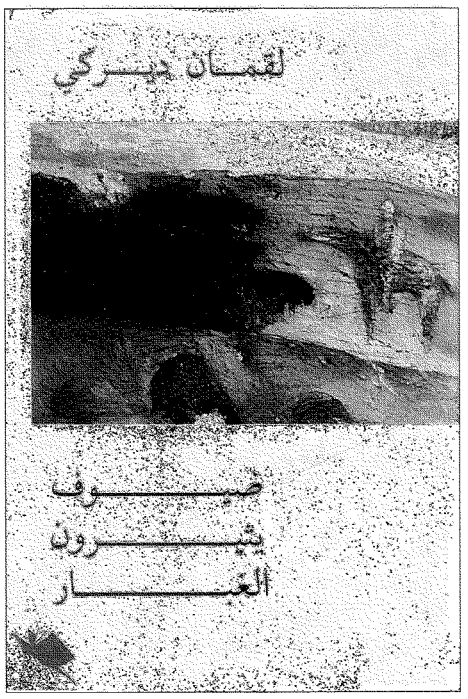

كتابي الشعريّ الأول مُنع، ثم سُمِح به تحت عنوان آخر، ثم مُنع بعنوانه الأصليّ

فليطردْهم إذَنْ ويكتبْ. وقد فوجئتُ مرّةً بزاوية للكاتب نبيل صالح في جريدة **تشرين** يطالب فيها بتغيير النشيد السوريّ؛ فوجئتُ أنّها نُشرتْ، وأشعرني ذلك بالراحة لأنّني وجدتُ كاتبًا طَردَ من رأسه الرقباء وكتب. «أكتبْ... ودعهم يمزّقوا أو يَنْشروا»: هذا هو شعاري.

غير أنّ أسوأ الكتّاب «الأحرار» هم الذين يَبْدأون مقالاتهم أو مسرحيّاتهم بمديح للسلطة ولمواقفها الوطنيّة، ثم يَنْتقلون إلى الانتقاد، ويَنْهون المقالةَ أو المسرحيةَ بميلودراما وطنيّة فيها ديباجاتٌ عن حبّ الوطن ـ وكأنّ حبّ الوطن يَنْتفي بانتقاد ظواهر الفساد والانتهازيّة والتملُّق! فكيف يمكنك أن تكون كاتبًا حرّاً وأنت تبدأ بالتملُّق وتَنْتهي بالتملُّق؟!

وبعد أن صَدرت **الدومري** بدأتْ أعدادُها تَنْفد خلال ربع ساعة، وبان عطشُ القارئ/ المواطن إلى الحقيقة، حتى جاءنا رئيسُ تحرير من عالم الغيب، وهو شقيق علي فرزات صاحبِ الجريدة، وبدأ بتغيير كلِّ ما صنعناه كي يرضي ذاتَه. فسقطت الجريدةُ في مستنقع العاديّة.

وشاء الحظّ أن أكون كاتبًا لأوّل مسرحيّة ساخرة وحرّة، وهي مسرحية **سُمِح في سوريا**. واستطعنا، أنا ومخرجَها ومنتجَها، أن نقدِّم عملاً مسرحيّاً سياسيّاً ساخرًا وحادّاً وجريئًا، من دون أيّة إشارة تملُّقيّة، ومن دون أيّة ميلودراما وطنجيّة. ولم تُمْنع المسرحيّة. وكان شَرْطي أن لا يتمّ تبديلُ ما كتبتُ. فأشرفتُ على العمل دراميّاً، خوفًا من أن يقوم أحدٌ ما بالمجاملات الرخيصة للسلطة. ولكنّي اكتشفتُ أنّ مُنْتج المسرحيّة كان على درجة كبيرة من الاطّلاع والثقافة، وكان يَمْتلك رأيي نفسَه، فنجحتْ تجربتُنا من وجهة نظرنا كأفراد يحبّون أن يطوِّروا بلادَهم ويشجِّعوا إنسانَ هذه البلاد على التخلُّص من السمات الانتهازيّة والوصوليّة و... الخوف.

وآخرُ ما حُرِّر أنّ صحيفة **يديعوت أحرونوت** الإسرائيليّة كتبتْ عن مسرحيتي **سُمِح في سوريا**، ولكنّ ما ذكرتْه من أحداث كان غيرَ صحيح. فأجدني الآن مضطرّاً إلى الردّ، وقد تخوّف الكثيرون من ذلك، ولكنّني أجده أمرًا طبيعيّاً أن أدافع عن نفسي في دوريّة عربيّة وأمام القرّاء العرب، لأنّ المقالة نُشرتْ على الموقع العربيّ للصحيفة الإسرائيليّة وفي صفحة «مختارات من الصحف الإسرائيليّة» في جريدة **القدس العربيّ**. وما ذُكر من أحداث عن مسرحيتي يَصِمها بالتملُّق للسلطة، وهذا ما لا أرتضيه. وسأكتب.

دمشق

لقمان ديركي

شاعر وممثّل وسيناريست سوريّ. من أعماله الشعريّة **ضيوف يثيرون الغبار**، **وكما لو أنّك ميت**، **ووحوش العاطفة**. كاتب سيناريو مسلسل «محاولات،» مِنْ إخراج غسان سليمان، ومسلسل «شو حكينا،» من إخراج عماد سيف، ومعدّ سيناريو ستة أفلام عن البيئة. مؤلِّف مسرحيّة **رؤوس أقلام** من إخراج المخرج الكويتيّ عبد العزيز منصور، ومؤلِّف مسرحيّة **سُمِح في سورية**. أحد مؤسّسي جريدة **الدومري** المستقلة الساخرة في دمشق مع صاحبها علي فرزات، وأمينُ تحريرها سابقًا.